الفصل الأوّل

ظلال الأسرة

الأسـرة هي اللبنة الأساسـيّة في كلّ مجتمع، وهي ركن مهم، فبحسـن تكوينهـا، وتمـام العنايـة بهـا، يكـون المجتمـع قويًّا، لا تضرّه المؤثرات الخارجيّة بتوفيق من الله.

عمر

الإرث المبارك

اكتسبت أسرتي -آل الشَّيخ- لقبها من الانتساب للإمام الشَّيخ المجدِّد محمَّد بن عبدالوهاب التَّميمي رحمة الله تعالى عليه (١١١٥-١٢٠٦هـ)، لأنَّ الإمام حين حمل على عاتقه همَّ الدَّعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وتبصير النَّاس بدينهم، وحماية جناب التَّوحيد، وتحرير الإنسان من أيّ تعلّق باطل، أو عمل شركي، لمخلوق، أو جماد، عُرف في نجد بلقب الشَّيخ إجلالاً له، ثم انتشرت التّسمية في باقي البلدان، وحمل أبناؤه وآله من بعده هذا اللّقب، الذي ينبئ عن نفسه في أقصر بيان، وهذه منقبة باقية للشَّيخ ودعوته، ولسان صدق في الآخرين.

ومن بركة الشَّيخ على ذريته من بعده، سريان العلم والدّعوة فيهم إلى زماننا هذا، وهو شرف لم يكتسبوه بالوراثة، وإنَّما

بالجدّية في طلب العلم، والاستعداد له، ومداومة البحث والنَّظر. وأسهمت الأجواء الأسريّة العبقة بالعلم، وأخبار الكتب، في انتشار الثَّقافة الدِّينيّة والعلميّة داخل أروقة الأسرة، فغدا جلُّ بنيها من الجنسين أصحاب معرفة شرعيّة جيَّدة، نظرًا لحضورهم في مجالس أسريّة حافلة بالعلوم، والتبّاحث، وأصبحت آثارها تظهر على غير دارسي علوم الشّريعة منهم.

الشجرة الطّيبة

من نبع هذه الدَّوحة العلميّة، اغترف أجدادي وآبائي، رحمة الله عليهم جميعًا، فكان جدّي الشَّيخ عبدالله بن حسن بن حسين بن علي بن حسين ابن الشَّيخ محمّد بن عبدالوّهاب، طالبًا للعلوم الشَّرعيّة، وإمامًا ومعلّمًا في الرِّياض ومكّة، بأمر من الإمام عبدالرّحمن الفيصل، ثمّ من نجله الملك عبدالعزيز -رحمهم الله-.

واختار الملك عبدالعزيز جدّي إمامًا للحرم بعد أن دخل مكّة في عام ١٣٤٣هـ، ثمّ أسند إليه رئاسة القضاة بالحجاز، مع

الإشـراف على الحرمين والتَّدريـس فيهما، وظلّ الشّـيخ عبدالله كذلـك إلـى أن انتقـل إلى جوار ربِّه في عام ١٣٧٨هـ، تاركًا آثارًا علميّـة مـن المؤلفـات، والذُّريّـة، والطّلبـة، فضـلًا عـن مواقـف مشهودة مشهورة بالصدع بالحقِّ، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وتقدّم المصلين عليه في المسجد الحرام الملك سعود، وأُديت عليه صلاة الغائب في مساجد المملكة.

واقتبس والـدي وأعمامـي -رحمهـم الله- السِّـمة العلميّـة، والدّعويّة، والاحتسـابيّة، من والدهم الجليل، وأصبحوا فرسـانًا فـي ميادين العلـم والعمـل، وهـم: عمّي الشَّـيخ محمَّـد، ووالدي الشّـيخ عبدالعزيز، وعمّي الشَّيخ حسـن، وعمّي الشّيخ إبراهيم، وعمّي الشّيخ أحمد.

وقـد تبـوأ كلٌّ واحـد منهـم مناصـب حكوميّـة فـي إمامـة الحرمين، أو مجلس الوزراء، ومجالس التَّعليم العام والجامعي، والقضـاء، والفتيا، والاحتسـاب؛ وترك بعضهـم تآليف نافعة في مجالات مختلفة.

الوالد القدوة

برز والدي رحمه الله (١٣٣٦-١٤١٠هـ) بالعلم، والخطابة منذ يفاعة سنه، حيث ألقى أول خطبة جمعة، وهو في أوّل عقده الثّالث، ثم ساعد والده في إدارة شؤون القضاء في الحجاز، وخطب في الحرم المكي الشَّريف، أكثر من ثلاثة عقود، كما خطب في يوم عرفة بحجّاج بيت الله الحرام، وصلّى بهم الظّهر والعصر في جامع نمرة، لمدة تقترب من ربع قرن، وهذان المنبران مهيبان، ولهما مكانة علميّة سامية، وخلود تاريخيّ طويل، كما تخرّج الوالد في الأزهر، وكان من ضمن أوائل الطلّاب السّعوديين الدّارسين فيه، وحينما زار الملك عبدالعزيز مصر في شهر صفر عام ١٣٦٥هـ- يناير ١٩٤٦م، ذهب والدي للسّلام عليه.

ومن الفرائد التي اختصّ بها والدي، أنّه جمع ثلاثة أعمال جليلة في عام واحد، فقد كان إمامًا وخطيبًا للمسجد الحرام، وإمامًا وخطيبًا لجموع الحجيج في عرفة، ووزيرًا للمعارف، وهذه من النَّوادر التي قلّما تجتمع لشخص واحد؛ في وقت واحد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله يجعلها من عاجل بشراه.

ومع الخطابة والقضاء، كان لوالدي حضور قويّ في مسيرة التَّعليم بالمملكة العربيّة السّعوديّة، حيث كان السّاعد الأيمن لأولّ وزير للمعارف في البلاد، الأمير فهد -الملك فيما بعد رحمه الله- خلال السَّنوات السّبع التّأسيسيّة لوزارة المعارف (١٣٧٣-١٣٨٠هـ).

ولا يخفى على القارئ أنَّ التّأسيس من أصعب مراحل العمل، ويقتضي من الجهد والاجتهاد أضعاف ما يتطلّبه العمل القائم. وقد صنعت هذه السُّنون ذات العمل المرهق، علاقة وثيقة بين والدي والملك فهد، وحمل كلٌّ واحد منهما للآخر تقديرًا كبيرًا.

ولارتباط والدي الوثيق بالتَّعليم، وحبِّه الكبير لهذا المجال، أصبح وزيرًا للمعارف بعد أن ترَّجل عنها الأمير فهد سنة ١٣٨١، ولازمت العناية بالتَّعليم والدي في جميع لحظات عمره دونما انقطاع، فكان معلِّمًا في بيته، ومع جلّاسه، وفوق منبره، وضمن تآليفه، التي جعل أحدها لمسيرة التَّعليم، والآخر لشؤون القضاء، فالتّعليم إحدى الكلمات المفتاحيّة في مسيرة الوالد وحياته.

وأكمل الوالد جهوده العمليّة في التَّعليم، والقضاء، والإمامة، والخطابة، وأصبح رئيسًا لهيئات الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر عام ١٣٩٦هـ، وظلّ مجتهدًا في تقديم ما يستطيعه من أعمال ورؤى وشفاعات، تخدم الصَّالح العام، حتى ارتحل إلى جوار ربِّه، ليلة الجمعة التّاسع والعشرين من شهر جمادى الآخرة، عام ١٤١٠هـ، وصُلّي عليه في الرِّياض، ودُفن فيها، كما صُلّي عليه صلاة الغائب في المسجد الحرام، الذي طالما صعد على منبره داعيًا ومعلّمًا وواعظًا.

وقد بلغني نبأ وفاته الفاجع، وكنت حينها أدرس التَّخصّص الدَّقيق في ألمانيا، فتوجهت من فوري إلى فرانكفورت، ثم وصلت إلى الرِّياض ليلاً، وقصدت المقبرة مباشرة، ووقفت على قبر والدي؛ والنَّفس حزينة، والعين دامعة، والقلب مشفق، واللّسان لاهج بدعوات ابن معترف بعظمة هذا الأب، وفضله، وإحسانه، فيا لله أيّ علِم ضمّه القبر؟ وأيّ فضل غمره التُّراب؟ وأيّ ذرى سامقة دُفنت معه؟!

ثمّ قفلت إلى بيتنا، وانطرحت بين يديّ والدتي -رحمها الله- معزّيًا ومسلّيًا، وجلست عقب ذلك مع أشقائي وشقيقاتي،

وقد هال الجميع عظم الفقد، لولا سابق إيمان بالقضاء والقدر، وعلم بحتميّة الموت على كلّ حيّ، وابتغاء للأجر على الرّضا والصّبر. وعدت بعد أسبوع إلى ألمانيا؛ لأكمل مشواري العلمي، أحتسب ذلك عند الله، ثمَّ برًّا بوالدي الذي كان العلم وسلوك دروبه من أعظم ما يطرب وجدانه، ويسعد خاطره، لو كان يخطر بيننا.

نسيج وحده

تميّز والدي بمناقب جليلة، وخلال حميدة، وصفات كريمة، وقد لمست شيئًا من هذه السّمات بنفسي في خاصّة أمره وعامّته، وفي خلوته وجلوته، والنَّاس شهود الله في أرضه، وما أكثر من يعرفون والدي عن قرب، ممن لا زالوا على قيد الحياة حتى الآن، أطال الله على النَّعماء والعافية والطَّاعة حياتهم، وبعضهم دوّن شيئًا من مشاعره تجاه الوالد بعد وفاته، ونشرت الصّحف عددًا من مقالات العلماء، والوزراء، والوجهاء، والكتّاب، فضلًا عن الأقارب والمحبين، كتب الله أجورهم.

كان الوالد الشَّيخ قويًّا في الحقّ، لا يحسب حسابًا للوم أحد أو عتابه، ويسوق رأيه بأدب جمّ، وهدوء بالغ، ويكسو تصرفاته بفعلٍ رزين، وحكمة تضع الشّيء في موضعه الصّحيح. كما تميَّز بغيرة عميقة على دين الله، وحرماته، وحدب كبير على مصالح النَّاس، ولم تثنه الأمراض عن بذل قصارى الجهد في النَّفع والإحسان، حتى مع اشتداد وطأة مرض السُّكري عليه في سنٍّ مبكرة.

ولوالدي تبّتل في العبادة وانقطاع، وقد شهدت ذلك بنفسي حين رافقته في حجّ عام ١٣٨٩هـ، فكان في إقباله على الطّاعة، ونشاطه لفعل الخيرات، والمسابقة إلى القربات، كأنّه لا يزال في قوة الشّباب، مع أنّه حينها قد تجاوز الخمسين!

ومن حرصه على الخير إجابته لدعوة المسلمين في القارّة الهنديّة، حيث وجد منهم حفاوة، وتزاحمًا كاد أن يؤذيه أو يفقده ثيابه؛ فلبعض المسلمين عاطفة غير منضبطة، تجاه إمام الحرم وخطيب عرفة، ومن عادة الوالد أن يصبر على هذه المواقف، ويتلّطف في تعليم الصّواب لمن حاد عنه.

وكانت توجيهاته لنا في البيت، مغلَّفة بحسٍّ تربوي بديع؛ حيث يوجّه النَّصيحة بالإيحاء، والأمر بالاقتراح، ويخفّف اللّوم بالدُّعاء الطّيب، ويرسل الانتقاد مع ابتسامة صافية. وأمَّا تعامله مع الوالدة فمثال فريدٌ من كرم النَّفس، وجميل العشرة، وشكر الجهود، حيث جعلها معه شريكة أصيلة في تربية الأبناء، وإدارة المنزل، وتحقيق الأهداف النَّبيلة العائليّة، والأسريّة، والمجتمعيّة.

ولا أزعم أنّهما لم يختلفا؛ بيد أنّ خلافهما كان محاطًا بالمودّة والرَّحمة، بعيدًا عن المناكفة والمشاكسة، ويجمعهما رباط وثيق من حسن العهد، والخيريّة التي يتغيّاها الرّجل الكبير حين يكون خيرًا لأهله، والجنّة التي تسعى لها المرأة الصّالحة بإرضاء زوجها، ومن ثم فما أسرع أوبتهما إلى بعض، وتصافيهما بصدق، ومحبّة.

ولوالدي مجلس يومي في بيته، مفتوح باستمرار، عامر بالزُّوار غادين ورائحين، حيث يحتوي الموافق والمخالف، ويستقبل الوجيه ومن دونه، ويختلط بمجلسه الخاصَّة مع

العامّة، ويحضره العالم والمتعلّم، ويتعارف فيه القريب والبعيد، ويستوعب المكان المقبل والمتحفظ.

وكانت سماحة نفس أبي، ونقاوة روحه، وسعة أفقه، وابتسامة محيّاه، ولطيف تعليقاته، وعنايته التي تلاحق كلّ من يدلف إلى مجلسه، وحفاوته الظّاهرة دونما تكلّف، تزيل وحشة هؤلاء المختلفين، وتصنع مزيجًا متناغمًا من الجلّاس، الذين جاءوا من مشارب شتى، ولأغراض متفرقة، حتى يكونوا وكأنّهم على قلب رجل واحد. واستمر المجلس حتى بعد تقاعد والدي عن العمل الحكومي، وابتعاده عن المناصب وبريقها، ولم نلحظ اختلافًا في عدد الحاضرين، وتفاعلهم، قبل التَّقاعد وبعده؛ لأنَّ الحضور كانوا يقصدون شخصه لا منصبه.

والدتي.. دوحة الوفاء

حين غيَّب الموت صاحب المجلس، أصرَّت الوالدة الجوهرة بنت عبدالعزيز بن عبدالله بن سرحان -رحمها الله- ببعد نظرها، وثاقب رأيها، على أن يستمر المجلس مفتوحًا

للقاصدين، ومكانًا لاجتماع الأقارب ولُقياهم، وآلت على نفسها ألَّا يندثر جميل فعل زوجها بموته، وأن تبقي ذكراه حيّة بين جنبات الأماكن، وعلى أفواه روّاده.

ومن وفاء الوالدة، أنَّها كانت تحثُّ أبناءها على دوام التَّواصل مع أهل أبيهم في حياته وبعد وفاته، وتؤكّد عليهم ضرورة التّرابط فيما بينهم، وأن يكونوا في حال الأُهبة لاستقبال الزُّوار دومًا ويبدو أنَّ سلوك الوالد، ووصايا الوالدة، قد نجم عنهما أن ورثتُ وأشقائي عادة فتح المجلس، حتى غدت مجالسنا معروفة مقصودة في الرِّياض، وهذه نعمة لا تقدّر بثمن.

وكانت الوالدة غفر الله لها، تكرِّر لنا بأنَّ نجاح أيّ أسرة معقود بمدى قوة تماسكها، وتواصلها، وقد أفادت هذه المعاني النَّبيلة، من قربها اللّصيق بوالدي منذ حداثة سنِّها، حيث اقترنت به وهي في صباها الغضِّ، وظلَّت قرينته نحوًا من خمسة عقود، وكانت بخلاف ما قالته العرب: أزهد النَّاس في عالم أهله! ولذلك اغترفت من معين علم زوجها، وفقهه، وبصيرته، وغور حكمته.

وتستعذب الوالدة الحنون معاني الأخوَّة؛ لأنَّها عاشت أكثر حياتها بلا أخت، حيث توفيت شقيقتها طرفة مبكرًا؛ ومن ثم كان لفظ (الخالة) مفقودًا على ألسنتنا، وهو فقد لا يشعر به إلّا من حرم من نعمة وجود الخالة. ولا شكّ أنَّ وجود الخال البّار يزيل شيئًا من وحشة الوحدة؛ وكان نعم السّند والمعين لأخته؛ بيد أنّ البنت -كلّ بنت- إنّما تأنس بأختها أكثر من أيِّ شخص آخر، وهذه طبيعة أنثويّة يقابلها قرب الأخوة الذّكور من بعضهم، والقاسم المشترك يجمع أهله غالبًا.

كما امتنّ الله على والدتي بإجادة القراءة، والقدرة على الكتابة، وهو امتياز نادر في جيلهم، فالتّعليم في بنات جيلها محدود جدًّا. ومن فضل الله على والدتي أنَّها لا تنفكُّ عن النّظر في المصحف الشَّريف، وتلاوته آناء اللّيل والنَّهار، وربَّما أنَّها أخذت شيئًا من تفسيره وفقهه عن والدي في أحاديثهم ونقاشهم، فضلًا عن اطّلاعها على خطبه وفتاويه.

وحين قضى الله الوفاة على والدتي في يوم الجمعة السّادس والعشرين من شهر رمضان عام ١٤٢١هـ الموافق ٢٢ من شهر ديسمبر عام ٢٠٠٠م، تركت حياتنا ولها ذكريات آسرة في

نفوسنا، زكيّة في مشاعرنا، عذبة على كلّ لسان، فالجميع يثني على كمال تربيتها، وصدق وفائها، ورعايتها لمجلس زوجها بعد وفاته. وإنَّه لشعور أليم حين يتذكر المرء ساعة فراق أمه، فطعم اليتم مرٌّ، ولو ذاقه الإنسان بعد اكتهاله، واللّه يرحمهما كما ربياني صغيرًا.

فيوض البركة

واليوم، تلجُّ بي الذّكرى؛ فأسترجع شريط حياتي مع الأبوين الكريمين، غفر اللّه لهما، وأجد أنِّي أفدت منهما كثيرًا، سواء في التّعامل بين الزّوجين، أو مع الأقارب، أو في تربية الأبناء، وحتى مع الآخرين من أصحاب الحاجات أو العلاقات العابرة، وهذا كلُّه بعد توفيق اللّه من فيوض هذه النَّشأة المنزليّة وبركاتها.

كما أجدني حفيًّا بالمعرفة، متهلّلًا للتَّعليم وحقوله، مرتبطًا بثقافة أمتي وحضارتها، معتزًّا بإرث أسرتي، ورسالتها العلميّة والدَّعويّة الرّاسخة، التي لا يضرّها ما يُرمى عليها من قذائف الباطل، وسهام الكذب، فالحقُّ قدره أن يعلو، ولا يُعلى عليه.

ومن عظيم أثر والدي عليَّ وعلى أشقائي وشقيقاتي، أنّه كان يحدِّثنا بلغة عربيّة فصيحة ليّنة، فانطبعت هذه اللّغة الفصيحة في أذهاننا، وعلقت على ألسنتنا، وصرنا نتكلم بها سجيّة دونما افتعال، وأضحت لغتنا المحكيّة دون أن نبذل جهدًا مضاعفًا، وبهذه العربيّة الرّاقية نجونا من وحل العاميّة المبتذلة، وصرنا نقصد إلى حلو الألفاظ، وكريم المعاني.

وتعلمت من والديّ قيمًا حياتيّة لا زلت أحرص على التّشبّث بها، منها تقديم حسن الظّن دون غفلة، وإجراء الأمور على طبيعتها من غير تعقيد، وتوضيح الرّأي الذي أعتقده بصراحة واضحة، مع كسو الحقيقة بألفاظ مناسبة؛ مراعاة لمقتضى الطّبائع الإنسانيّة، وإن أتجاوز عن ذكر شيء، فلن أتجاوز قيمة العدل مع الأبناء، والرّفق بالعاملين، واللّه يجعلنا من آثارهما الصّالحة.

ومن أجلّ ما أخذته عن والديّ، أن تكون حياة المرء مرتبطة بأهداف راقية، وطموحات عالية، يسعى لأجل تحقيقها، على أن تكون الأهداف نبيلة، والغايات مشرّفة، وأن يكون طريق الوصول إليها مستقيمًا بلا عوج، وأن تؤدي بصاحبها إلى رضا

الله سبحانه، وتكون له رصيدًا عند مولاه، وأن يكون أثرها بعيدًا، ونفعها دائمًا، وبركاتها تعمّ ولا تخصّ.

أشقائي.. سعادة أيّامي

أشقائي وشقيقاتي منّي ملء السّمع والبصر، بهم تحلو الحياة وتسعد الأيام، ولي معهم ذكريات لا تنسى، ومشاركات لا تمحوها الأيّام، فقد تقاسمنا المنزل، وجلسنا على مائدة واحدة، ونهلنا من مورد واحد، واكتسبنا ذات الصّفات الخُلقية، وأتمنّى أن تكون الرّوابط بين أبنائنا متينة ممتدة؛ معبّرة عما بيننا من وداد وصفاء.

فأكبر أشقائي عبدالرّحمن درس الاقتصاد الزّراعي، وعمل أستاذًا وإداريًّا في جامعتين، وخدم في مجلس الجامعات قبل أن يصبح وزيرًا للزّراعة والمياه خلال عقدين من الزَّمان. ويأتي بعده أخي محمّد، حيث درس هندسة النّقل، وعمل أستاذًا في جامعة الملك سعود، ثم انتقل إلى الهيئة العليا لتطوير مدينة الرّياض، وأصبح بعدها وزيرًا خلال اثني عشر عامًا،

ثلثها للبلديات والشّـؤون القرويّة، وثلثاها وزير دولة، وعضوًا في مجلس الوزراء.

وبعـد الأخويـن، جاءت إلـى بيتنا أخت كريمـة، ونبتة مباركة، وهـي شـقيقتي منيرة، ومـن فرط عناية الوالد بهـا أن مكّنها من التّعليم داخل المنزل، وتعاقد مع معلّمات لها قبل أن يكون تعليم البنـات عامًّـا، وهـا هي اليوم تمارس أعمـالًا مجتمعيّة وأسـريّة مباركة، والغرس الطّيب يؤتي أُكله وثماره اليانعة.

ويأتي بعد المنيرة، شـقيقي أحمد الذي شـغل منصب الأمين العـام المسـاعد للمجلس الأعلـى للجامعـات، وتوفـي -رحمـه اللّه- في يوم الأربعاء ٢٢ من شـهر جمادى الآخرة عام ١٤٢١هـ الموافـق ٢٠ مـن شـهر سـبتمبر عـام ٢٠٠٠م، قبل وفـاة الوالدة بثلاثة شهور -رحمها اللّه-، وإنّ وفاته لذات وقع يعتصر الفؤاد، فاللّهم عوّضه عمّا ألمَّ به جنانًا عالية.

وجـاء ترتيبـي في الميلاد بعد أحمد مباشـرة، ثـم كانت هند طريدتـي مباشـرة، ونالها من العنـاية الأبويّـة مثل ما نال منيرة، فحظيـت بتعليم خاصّ وعـام، إضافة إلى التّربيّـة المنزليّة التي جعلـت منها امـرأة ناضجة، تتحمّل المسـؤوليّة الثّقيلة، حتى في

أصعب اللحظات. وبعد هند ولد شقيقي عبدالمحسن الذي عمل في القطاع الخاصّ، فشقيقي عبدالله وكان يعمل نائبًا لمحافظ المؤسسة العامّة لتحلية المياه المالحة للتَّخطيط والتَّطوير.

وأخيرًا.. عمر

ولدتُ مثل كلّ إخواني وأخواتي-خلا عبدالله- في الطّائف، وكان مولدي في عام ١٣٧٠هـ-١٩٥١م، في حيّ باب الرّيع، وسمّاني والدي (عمر)، وهو اسم كان يرغب في إطلاقه على بعض من سبقني من إخواني، ولكنّه لم يفعل استجابة لمقترحات الوالدة، حتى كانت التّسمية من نصيبي.

وقضيت سنوات الطّفولة الأولى بين مكة والطّائف، ثم انتقلت مع والدي إلى الرّياض قبيل دخولي إلى المدرسة، وفي مدينة الرِّياض درست جميع مراحل التّعليم العام، كما سيأتي، ثم ابتعثت للدّراسة في الخارج، وعدت خلال إجازة إحدى سنوات الدّراسة لأجل الزّواج.

رفيقة دربي

أنعم الله عليّ وتفضّل، بزوجة رائعة في نفسها، كريمة في بيتها، قريبة في نسبها، فاقترنت عام ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م بابنة عمّي، نورة بنت عبدالله بن محمّد بن إسحاق آل الشّيخ، وشاركتني سنوات الغربة وطلب العلم، وقاسمتني جميع أحوالي، فكانت قريبة منّي في الرّخاء، بينما تكون في الشّدَّة أقرب.

وهي معين لي بعد عون الله ساعة البحث والقراءة، وخير خلف حين أخرج من بيتي لتطبيب أو تعليم، وحينما أغادر المنزل تشفعني بجميل التّوديع، وصادق الدّعاء، وحين أعود تستقبلني بمحيًّا طلق، وترحاب بالغ.

ولا أجد الكلمات المناسبة التي توفيّها شيئًا من حقِّها، فما وجدت منها رهقًا ولا تعنّتا، بل أحسنت تقدير مشاغلي، وطبيعة عملي وضروراته، ولم تدركها الغيرة المرضيّة تجاه وجود زميلات، أو طالبات، أو مريضات، وما ذلك إلا من ثقتها المتينة بنفسها، تلك الثَّقة التي كانت زادًا معينًا لي خلال مسيرتي، ووقودًا يزيد من همّتي ونشاطي، وسببًا من أسباب ابتهاجي.

وإنّي حين أذكر حياتي مع زوجتي، ليغمرني شعور عارم بالسَّعادة، وتمثُّل كبير لمعاني الزَّوجية، تلكم المعاني الباسقة القائمة على المودّة والرّحمة، والمرتوية بالحبّ والتّوقير، فالحياة الزوجيّة في نظري استمرار لخلافة الإنسان في الأرض، وجزء من عمارتها، وهي عبادة، وميثاق غليظ، وعهد مقدَّس وثيق.

فلذات روحي

رزقت وزوجتي ستًّا من البنات وابنًا واحدًا، وكان فرحي بهذه الذُّرية المباركة، واغتباطي بتلك النّعمة الرّبانيّة، لا يختلف أيًّا كان جنس المولود؛ حتى غدا سلوكي المتساوي مثار استغراب بعض المحيطين، الذين خبروا مواقف من يرزق بولد بعد عدّة بنات.

ونظرتي تقوم على أنَّ مكانة الولد أيًّا كان جنسه، لا تختلف عند الأب السَّوي، فكلاهما قطعة منه، وكلاهما أثر له، وكلاهما يحمل اسمه، ويجب عليهما البّر والدّعاء، ولو كان تفضيل النّاس

للولد نهجًا صحيحًا، لما اختار الله لنبيه صلّى الله عليه وسلّم أن تكون ذريته الباقية كلّها من البنات!

وأول بناتي مولدًا منى، ثمَّ جاءت غادة، ورزقنا بعدها بنوف، ثمّ ولدت لنا إيمان، وسررنا بسارة، وابتهجنا بنجلاء، وكان محمّد آخر العنقود، وكلّهم عندي سواء. وقد ولد بعضهم خارج المملكة، وبعضهم داخلها، وكانت تسمية الذّريّة بالتّشاور والتّراضي بيني وبين والدتهم، فالحرص بيننا مشترك على اختيار أسماء عربيّة، جميلة، ذات دلالة، والحمد لله أن صاروا لحياتنا غُنْمًا يفوق أيّ شيء آخر، وكيف لا يكون ذلك، وهم سنم الأماني العِذاب؟!

وتقوم علاقتي مع أولادي على الصَّراحة والحوار المستمر، ولنا جلسة بين العشاءين لا تنقطع، وأحاديث في شؤون شتّى أسمع منهم، ويسمعون منّي ومن زوجتي. وقد تركت لهم حريّة اختيار التّخصص الدِّراسي، فدرس بعضهم علم النَّفس، وتخصّص آخرون في اللّغات والتّرجمة، ودرس البقيّة الإدارة والقانون، والأمر المهم الذي اتفق معهم عليه هو ضرورة الإتقان، ونفع البلاد والعباد.

وتـزوج بعض أولادي، ورزقـوا بذريّة، ونصيب البعض لمّا يأت بعـدُ، وفضـل الله لهم قريب عظيـم، والله يوفـق الجميع لخيري الدّنيـا والآخـرة، ويبارك في أولادي وأحفادي، ويجعلهم من أهل المنافع ذوات الأثر البعيد، والفضائل البادية، والبركة الممتدّة، حتى يكونوا أجرًا لنا في الآخرة، كما كانوا أُنسًا لنا في الدُّنيا.

الثّروة العظمى

وإنّـي لفخور بهم حين أذكرهـم، وحين أراهم، وحين أتحدّث عنهم، تمامًا كذلك الشُّعور من الفخر، الذي يغمرني حين أذكر آبائـي وأشـقائي، فأسـتعرض منجزاتهـم، ثـم أحمـد الله علـى افتخارهـم بـي على تقصيـري، وأثني علـى مولاي، حيـن تفضّل علينـا بنعمـة الانتسـاب لأسـرة ذات حكاية عظيمـة، وأثر جليل، وامتزجـت بتاريـخ هـذا الوطـن، وأسـهمت فـي بنائـه السّـامق، والحمد لله أولًا وآخرًا.

ولقـد سـعيت جهـدي أن تكـون نظرتـي لأشـقائي، ولأبنائـي، وتعاملـي معهـم، الظّاهر كلّه، والباطن الذي أسـتطيع السّـيطرة

عليه، سواء بسواء، فلست أفضِّل شقيقًا على آخر، ولا أقدّم ابنًا على غيره، فهم عندي على قدم المساواة، لا يبصر الفاحص فيها اختلافًا أو عوجًا.

وإنّه لمن التّحديث بنعمة الله، أنّي حين أسمع حديث زوجي وأولادي عنّي، أشعر بأنّي قد حزتُ ثروة معنويّة كبيرة؛ ليس لمضمون كلامهم حول شخصي؛ وإنّما لأمرين، أوّلهما أنّهم يلحظون تصرفات الآخرين، ليستخلصوا منها ما يمكن أن يفيدهم، فالاقتداء البصير يقّصر المسافات، ويعطي لأجيال الشّباب خبرة من سبقهم، كي يغترفوا منها، وينهلوا، ويبنوا عليها تجاربهم وخططهم.

وأمّا الأمر الآخر، فقد تداول الأبناء الكرام، وأمّهم الغالية، صفات حميدة، وخصالًا منيفة، ويكفيني أنّ هذه السّجايا هي التي تعجبهم، وتجذبهم نحو الآخرين، سواء كانت موجودة لديّ، أو كانت من إعجاب الذّرية والآل، فما أجمل أن تسمع حفاوة من حولك بالعلم، والإنجاز، وسعيهم نحو السّمو، وحسن الظَّن، مع إيمان عميق بالله، وتوكل راسخ عليه، وسعي دؤوب لخدمة الآخرين، ومشاركة فاعلة في خدمة المجتمع، وفوق ذلك

ارتباط بالعزّة، والقناعة، والكرم، مع الثّقة بالنّفس، والإفادة من الأخطاء والتّجارِب، وألَّا يأسر الإنسان عقله لغير الحقِّ.

وإنّها لعمر الله إجابات تقودني كي أسجد بين يديّ ربّي شاكرًا حامدًا، أن تكون هذه قناعات أهل بيتي، وهذا الذي يثير إعجابهم، ثمّ أزيد في السّجود والشّكر؛ سائلًا الله القبول والتّوفيق، وأن يغفر لي أخطائي، وما لا يعلمون من تقصيري، وأن يجعلهم من آثاري الباقية، وأعمالي الصّالحة، وأن يريني بهم ما تقرُّ به العين فرحًا، وما يهفو له القلبُ من خير ومسرّات.